مقدمـــة

كثر الحديث فى هذه الأيام حول الأصالة والتجديد فى أدبنا، وإذا كانت الأصالة تعنى الارتباط الشديد بتراثنا وبيئتنا، كما يعنى التجديد الانفتاح على ما يجرى حولنا فى العالم من تطوير فى العمل الأدبى فى الشكل والمضمون، فإن الدراسات الشعبية ينبغى ألا تكون بمنأى عن هذا المطلب. فالمطلوب من المهتمين بالدراسات الشعبية العربية، فى جميع أقطار الوطن العربى، أن يوصلوا بين حضارتنا القومية وتراثنا الشعبى، وأن يطوروا دراسته وفق أحدث المناهج التى تحرص الأمم المتحضرة اليوم على تطبيقها.

وليس هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم للقارئ العربى سوى حلقة من سلسلة من المعاناة الطويلة فى دراسة تراثنا الشعبى العربى بصفة عامة، وقد تمخضت هذه المعاناة عن مجموعة من الدراسات المترجمة والمؤلفة، منها كتاب الحكاية الخرافية الذى نقلناه إلى العربية عن الألمانية، وكتاب أشكال التعبير فى الأدب الشعبى، وكتاب سيرة الأميرة ذات الهمة، ثم كتاب الفولكلور فى العهد القديم الذى نقلناه إلى العربية عن الانجليزية، وهو للباحث العالم جيمس فريزر، ثم كتاب قصصنا الشعبى من الرومانسية إلى الواقعية.

أما كتابنا هذا، فهدفى من وراء تقديمه للقارئ العربى المتخصص، هو إطلاعه عما يجرى حولنا فى بلاد العالم أجمع من اهتمام بالغ بالدراسات الشعبية القومية، ذلك الاهتمام الذى يتمثل فى الأبحاث النظرية والتطبيقية الواسعة. ولم تتمخض أبحاث هذا الكتاب عن قراءات واسعة فى الدراسات الشعبية فحسب، بل إنها كانت نتيجة معايشة صادقة لجوانب اجتهاد الشعوب فى هذا الفرع المهم من الدراسات الانسانية، ففى عام ١٩٦٧ منحتنى هيئة اليونسكو منحة لزيارة مراكز ومعاهد الفولكلور فى كل من فرنسا وإنجلترا وإيرلندا وفنلندا وألمانيا ورومانيا. ومنذ ذلك الوقت وأنا على صلة بهذه المراكز والمعاهد. وهذه الصلة نابعة من إحساسى بعدم اهتمامنا بتراثنا الشعبى القومى الذى ربما لا يعادله بلد من البلاد فى تراثه وتنوعه. ومن ثم لم أترك فرصة فى زياراتى لتلك البلاد إلا استفدت منها فى تحصيل مزيد من العلم؛ فلم أترك أرشيفاً إلا عشت مع المختصين فيه بعض الوقت، ولم أترك محاضرة يمكن أن أستفيد منها فى هذا المجال، إلا استمعت إليها، ولم أترك أستاذاً يشتغل فى هذه الدراسات

وأمكن مقابلته إلا دار الحوار بينى وبينه. وكان جميعهم يود أن يعرف منى عن حاضر هذه الدراسات ومستقبلها عندنا بقدر ما كنت أود أن أعرف منهم عن وجوه نشاطهم، ولم أترك متحفاً إلا زرته أو فرصة للقيام ببعض الأبحاث الميدانية إلا شاركت فيها. فلما فرغت من كل ذلك وخلوت إلى نفسى، تزايد إدراكى لافتقارنا إلى التنظيم العلمى لهذه الدراسات، ولدى تلكؤنا فى تحقيق مهمة قومية لن يعيننا فيها أحد ما لم نعن أنفسنا.

ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أبواب تندرج تحتها عدة فصول:

أما الباب الأول؛ فيشتمل على عرض مفصل لنشاط الدراسات الشعبية فى كل من فرنسا وإنجلترا وإيرلندا وفنلندا ورومانيا وألمانيا.. ويشتمل هذا العرض على شرح الظروف التاريخية التى نهضت فيها هذه الدراسات فى هذه البلاد، وطريقة تنظيم هذه الدراسات فى المراكز أو المعاهد أو المتاحف، ثم على برنامج الدراسة الأكاديمية الذى تقدمه بعض هذه البلاد للدارسين.

وإذا كان من الطبيعى أن تختلف هذه البلاد فى كثير أو قليل حول أسلوب تنظيم هذه الدراسة الذى تحكمه ظروف كل بلد وطبيعة مادة تراثه الشعبى، فإنها جميعاً تتفق حول أهداف واحدة هى البحث التاريخى عن ملامح شخصية شعوبها وعن سلوكها الروحى واحتياجاتها النفسية، ثم ربط تراث الشعب حاضره بماضيه. وقد أفضنا فى الفصل الخاص بالدراسات الشعبية الألمانية فى ذكر المشكلات النظرية التى عالجها الباحثون الألمان منذ القرن الثامن عشر، ذلك أن هذا الجدل لم يثره الباحثون فى أى بلد من هذه البلاد منذ زمن مبكر كما حدث فى ألمانيا. ولقد كانت ألمانيا بحق رائدة فى هذه الأبحاث التى تبناها الدارسون فيما بعد فى البلاد الأخرى. وكما كانت ألمانيا رائدة فى هذه الأبحاث النظرية، فهى تعد كذلك رائدة فى تبنى أحدث مناهج الدراسات الشعبية، وهو المنهج الذى يقوم على دراسة الحياة الشعبية فى المدينة. ويضطلع بهذا قسم دراسة الحياة الشعبية فى مدينة «توبنجن» الذى تنظر إليه سائر أقسام الدراسات الشعبية فى المدن الجامعية الألمانية الأخرى باهتمام بالغ لما يمكن أن يحققه من نتائج.

ثم قدمت فصلاً عن الدراسات الشعبية فى أمريكا، لا لأننى عايشت هذه الدراسات بالولايات المتحدة، عن قرب، بل لأننى قرأت كثيرا عنها وعما تم فيها من أبحاث ولهذا شئت أن أضع وجهة نظر الباحثين الأمريكيين فى هذه الدراسات فى إطار عام مع الدراسات الشعبية فى أوربا. وقد اعتمدت فى هذا البحث على ما كتبه باحث فولكلورى روسى مرموق هو الأستاذ «ل. زيملجانوفا» عن الدراسات الشعبية الأمريكية، وقد نشر بحثه فى العدد الثامن والعشرين من مجلة الدراسات الشعبية الأمريكية.

وقد كان من الطبيعى، بعد أن عرضت لدراسة التراث الشعبى فى أوروبا وأمريكا، أن أقوم بعرض تاريخى لوجوه الاهتمام بالتراث الشعبى العربى منذ العصر القديم حتى اليوم. وقد خصصت لهذا بابا يحتوى على ثلاثة فصول. أما الفصل الأول فيبحث فى التراث الشعبى الجاهلى. وأما الفصل الثانى فيبحث فى التراث الشعبى فى العصور الإسلامية، كما يحتوى الفصل الثالث والأخير على الدراسات الشعبية العربية فى العصور المتأخرة والحديثة وقد استطعت أن أستخلص من هذا البحث المسهب النتائج الآتية:

أولاً – حرص كتاب العرب القدامى على تدوين كل ما كان يتصل بمادة المعارف الشعبية العربية فى العصر الجاهلى والإسلامى، بحيث أصبحت كتب التراث العربى تضم بين ثناياها مادة هائلة حول هذا الموضوع. ومازال هذه المادة فى انتظار جهود المختصين اليوم فى العمل على تصنيفها ودراستها.

ثانياً – الصلة الوثيقة بين تراثنا الحاضر وتراث الماضى.

ثالثاً – على الرغم من الجهود التى بذلها رواد الجيل الماضى والجيل الحاضر فى هذا المجال، فمازال عملنا يفتقر إلى تخطيط وتنظيم، وبدونهما لا نستطيع أن نلحق بركب الأمم المتحضرة التى قطعت شوطاً بعيداً فى هذه الدراسات.

ويحتوى الباب الثالث من الكتاب على دراسة تطبيقية لأحدث المناهج التى تتبع اليوم فى الدراسات الشعبية على بعض النماذج من أدبنا الشعبى. وإذا كنا قد ركزنا هذا التطبيق حول نماذج أدبية بصفة خاصة، لأن هذا مجال تخصصنا فى المقام الأول، فهذا لا يعنى أن هذه

المناهج بعينها لا تطبق على سائر مادة التراث الشعبى، فكل شكل من أشكال التعبير الشعبى مادياً كان أم أدبياً يمكن أن يدرس من وجهة نظر المنهج التاريخى الجغرافى والمنهج الوظيفى والمنهج الاجتماعى والمنهج النفسى والمنهج الأنثروبولوجى ثم المنهج البنائى الأدبى، وهى المناهج التى عنينا بدراستها دراسة تطبيقية. أما المنهج الوظيفى فقد قمنا بدراسته من خلال أعمال باحث الأنثربولوجيا الاجتماعية المرموق مالينوسكى، الذى يعد أول مؤسس لهذا المنهج. ثم قدمنا نماذج تطبيقية للأسطورة من خلال نظريته الوظيفية؛ وأما المنهج الاجتماعى فقد عرضناه كذلك من خلال الباحثة الفنلندية «هيلما جرانكفست» التى قامت بدراسات عميقة للتراث الشعبى الفلسطينى، وربطت فيها مادة هذا التراث بالحياة الاجتماعية ربطاً وثيقاً. وفيما عدا هذا فقد طبقنا سائر المناهج على نماذج من أدبنا الشعبى الحى.

ثم سرنا بهذا البحث قدما، فعرضنا بعض مشكلات العمل الميدانى التى ترتبط بمناهج البحث الحديثة. ومن ثم فقد ناقشنا موضوع الاهتمام بالراوى وطريقة روايته والبحث عن العناصر الثابتة والمتطورة فى روايته. وكذلك ناقشنا مشكلة العمل الميدانى فى عصر التكنولوجيا وما يترتب على ذلك من ضرورة بحث الجامع عن مجالات شعبية جديدة يجمع منها مادته. فإذا حاول أن يجمع مادته فى مجتمع تقليدى مثل مجتمع القرية، فعليه ألا ينظر إلى هذا المجتمع نظرة قديمة باعتباره مجتمعا مغلقا، بل عليه أن يراعى التغيرات الاجتماعية التى طرأت على هذا المجتمع؛ نتيجة تأثره بعصر التكنولوجيا. وقد قدمنا للقارئ بعد ذلك نماذج من الحكايات الشعبية التى اعتراها التغير فى المجتمع الشعبى المعاصر.

وإذ أقدم للقارئ العربى الذى تتأجج روحه بالشعور بقوميته وعروبته، ويتوق إلى تعريف العالم أجمع بتراثنا ومعالم شخصيتنا، لا أطلب منه سوى أن يعده مجرد جهد متواضع صدر عن باحث عربى تشتعل الحماسة فى نفسه، ويعمل فى جد فى سبيل إبراز تراثه القومى، ولايعد كل ما تم فى هذا المجال من جهود فردية سوى خطوات على الطريق.